وأحل الله البيع وحرم الربا

للأستاذ محمود شلبي

قرأت هذا الملحق الذى أصدرته « لواء الإسلام » عن الربا فأعجبنى إعجاباً كبيرا .

ذلك أنه كلمة حق ، وزئير صدق ، وتذير للناس بين يدى عذاب شديد .

وقد جاء وافيا بكل شيء عن الربا ، وفصلوا فيه الأمر تفصيلا جميلا .

قال قائلهم : « هنالك إجماع فى كتب التاريخ الاقتصادى ، ودوائر المعارف ، على أن الفائدة هى الربا . لذلك أعجب كثيراً إذا بقى من المسلمين ، من يناقش الصلة بين الفائدة والربا ، فهذه الصلة مقطوع بها حتى ممن ابتدعوا الفوائد أنفسهم » .

وهذا قول نافع ، وتعريف جامع مانع ، تاقى به فى وجوه الذين مالوا وانحرفوا عن الطريق المستقيم .

ثم يقول قائلهم : « لذلك أنا فهمت الربا على أنه أوسع من الصور التى عرفت فى صدر الإسلام ، وأظن كل احتكار ، وكل اعتصار للفقير ، وكل كسب ليس له أساس من الشقاء ، بمعنى شقاء البدن ، أراه ربا ، إذ يجب أن يكون للكسب ما يبرره من التعب والإجهاد » .

قلت : هذا الذى يقوله الأستاذ عيسى عبده ، فيه علم ، وفيه عاطفة شطحت عن العلم .

أما الحق من قوله فهو أن كل احتكار ، وكل اعتصار للفقير ربا . ذلك حق لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حرم الاحتكار .

وكذلك اعتصار الفقراء هو كسب خبيث ، لأنه يأكل دماء الضعفاء ، والمغلوبين على أمرهم .

وإن كان هذا اللون الأخير ، لا يسمى ربا ، وإنما الأولى أن يسمى كسباً خبيثاً حراما ، تمييزاً عن الربا المتعارف عليه .

وأما القول الذى فيه عاطفة ، شطحت به عن العلم ، فقوله وكل كسب ليس له أساس من الشقاء أراه ربا .

هذا خطأ محض يا أستاذ عيسى ، لأن الرزق ليس موكولا بالشقاء ، والله يرزق من يشاء بغير حساب . وهذا معلوم بالضرورة . وهناك آلاف تكسب الكثير بدون جهد ، وهناك آلاف أخرى تكسب أقل من القليل بشق الأنفس .

ولا يتصور أن نقول أن هؤلاء الذين يكسبون من غير جهود وشقاء ، إنما يأكلون الربا .

ذلك أن الله يرزق لحكمة يعلمها هو لا نعلمها نحن ، وتقديره سبحانه فوق تقديراتنا المعهودة .

وإلا لجاز أن نقول أن الرجل الذى يرث ثروة طائلة عن أبيه رجل يأكل الربا ؟ ! .

وهذا خطأ فاحش ، ومعلوم أن الميراث شيء أحله الله ، مهما كثر أو قل « للرجال نصيب مما اكتسبوا ، وللنساء نصيب مما اكتسبن ، مما قل منه أو كثر ، نصيباً مفروضاً » .

وأحب أن يدلنى الأستاذ عيسى ما هو المجهود ، وما هى المشقة التى يبذلها الوارث ؟ .

وهل هناك فى الميراث مهما كثر من ربا ؟

تلك هى شطحة العاطفة ، وإن كانت عاطفة نبيلة ، وهذا ما يغفرها للأستاذ عيسى .

وكأنى ألمح فى كلامه شيئاً يريد أن يقوله . هو يريد أن يقول ذلك المعنى الذى أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : « إن أطيب ما أكل ابن آدم من عمل يده » أو كما قال :

إذا كان هذا هو ما يهدف إليه ، وأعتقد أن هذا ما كان يجول بخاطره ، فاللهم نعم .

وفرق كبير بين أطيب ما أكل وبين الربا نفسه .

إلا أن الأستاذ عيسى عبده ، رغم هذه الشطحة ، يبدو عظيما ، منادياً بالحق فى أعظم صوره حين يقول : « الربا حرم فى الإنجيل ... حتى جاءت الثورة الصناعية فى أواخر

القرن الثامن عشر ، وعدلت الجامعات والأوساط العلمية عن تحريم الربا ، ومالت إلى إباحته مع تخفيفه ... وقالت يجب أن نغمض الطرف عن فكرة تحريم الربا . أولا لأن مصدرها وهو الكنيسة لا يستحق الاحترام ، وثانياً لأننا محتاجون لها ، لكى نسترد من البلاد المختلفة رأس مالنا مضاعفاً ، وزاد على ذلك أيضاً أن الفائدة والإقراض بالربا الفاحش ، كان وسيلة للاحتلال . . . وقالوا : أقرضوا ، وزيدوا فى الفائدة ، ولا تبالوا هذه الكنيسة ، لأن هـــذه هى وسيلتنا لإخضاع المسلمين ، ولأخذ خيراتهم ، وهكذا اقرضوا ، وبالفائدة المركبة . فإذا عجز الوالى عن أن يدفع زاد من الضرائب ، فإذا فزع الناس زاد من الجندرمة فإذا أنت الميزانية أقرضوه من جديد ، حتى غرقت بلاد المسلمين فى هذه القروض ،

روعة ، ووصول إلى الحق لا يستطيعه إلا من أراد الله به خيراً .

وكأنى به يروى قصة احتلال مصر بالذات ، وكيف كان عن طريق تلك الديون الربوية التى استدانها ذلك المفتون الأحمق ، اسماعيل بن إبراهيم ، حين أخذ قليلا ، وحاسبوه على أضعافها ، وكان التدخل الإدارى فى شئون مصر ، ثم الاحتلال الصريح مما هو معلوم من تاريخنا .

ولقد زاد الأمر سوءاً أن ذلك الخديوى ، كان يبعزق تلك الأموال فى أمور لا خير فيها ، ولا حاجة بالبلاد إليها .

وكان هذا من سوءات الربا الكبرى ، أن ضاع شرفنا ، وضاعت عزتنا حيناً من الدهر ، بسبب التعامل بالربا .

ولقد خدعنا الاستعمار وأذنابه ، حين أفهمونا أنه لا اقتصاد إلا بالربا ، ولا حياة إلا بالربا . وقالوا هذه البنوك ، وهذه البورصات ، وهذه الشركات ، وهذا هو العالم كله يتعامل بالفائدة ، أأنتم تشذون وتخرجون عن أسلوب استقر وأصبح عرفا للدنيا كلها ؟ .

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا .

إنهم يغالطون . . . فالعالم الإسلامى مكث ثلاثة عشر قرناً ، من أول عهده بالإسلام حتى وقع فى قبضة الاستعمار ، وهو لا يتعامل بالربا ، ولا يحتكم إلا لنظام الشريعة .

فما سمعنا أن الحياة توقفت ، أو أن الاقتصاد أصابه الشلل أو الجمود .

بل على العكس من هذا كانت الحياة كريمة ، فيها إنسانية ، وفيها رحمة ، وفيها توجه إلى الله .

أما الآن وقد حل الربا فى كل شىء ، فقد ارتفعت الرحمة من كل شىء ، وآذن الله الناس بحرب ، ويالها من حرب .

أما أن يأتى ذلك العالم الاستعمارى المسعور ، النظام اليهودى المدمر ، نظام الربا ويفرضه علينا فرضا ، بحكم سلطانه واستضعافه للمسلمين ، فذلك ما ينبغى أن نلفظه لفظا بعيداً .

فإن قيل فكيف السبيل إلى ذلك ؟ . قلنا اسمعوا إلى ما يقول الأستاذ عيسى : « الفكرة تتلخص فى تأمين المصارف ، لأن فهمى لتحريم الربا ، يتلخص فى أن النقود وظيفة لا ينبغى لغير الدولة . . . الصيرفة وخلق النقود وظيفة لا تجوز إلا للدولة ، كالأمن والقضاء والمحافظة على الحدود تماما ، فإذا قلنا بأن المصارف وحدها — وهذه هى العبقرية التى أراها كافية فى أحكام قواعد الاقتصاد فى الإسلام — يجب أن تكون فى يد الدولة فإن معنى ذلك أن يكون بيدها بيت المال ، ودار الصك ، والصيرفة التى تخلق النقود الائتمانية ... فإذا آمنا بأن البنوك يجب أن تكون جهازاً حكوميا ، فإنه ينبنى على ذلك مباشرة ، إن الدولة تعطى الائتمان بغير فائدة .. وهنا تثور أسئلة: كيف تغطى مصاريفها ؟ .. فتستطيع الدولة أن تجرى المصاريف وتنفق عليها ، كما تنفق على غيرها من المرافق ، من الضرائب وحدها . فالفكرة فى إلغاء الفائدة هى رفع السدود عن الدم الذى يجرى فى الشرايين ، وما يعود على البلد من دورة النقد وتنشيط الحركة الاقتصادية فى صورة مكرر استعمال الدخل ، وفى صورة ربح يعود على رأس المال ، وأجر يعود على صاحب العمل ، وضريبة تعود عل الدولة ، يفوق أضعاف الفائدة .. وأفهم من تحريم الربا فى كتاب الله ، أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون للدولة الإسلامية القبضة على المال فى صورته الميسرة » .

ذلك شىء مما قاله الرجل فى سياق الربا ، وهو قول جميل ، وحل رائع جليل ، يضعه صاحبنا تحت أعين من أراد الحق من هذا الأمر .

وماذا علينا لو أخذنا بقوله ، وأممنا البنوك جميعا ، وقامت البنوك بأعمالها ، للخدمة العامة ، لا للاستغلال ، وحملت الخزانة العامة مصاريفها ؟ .

هل فى هذا من عجب ؟ .

اللهم لا ، ولقد جربنا تأميم بعضها ، فما ازدادت إلا نشاطا ، وما ازدادت إلا ثباتا .

فلم لا نقدم ... ويد الله مع أيدينا فى هذا الأمر الذى يرضيه ، ويعفينا من حرب الله ورسوله التى لا قبل لنا بها ؟ .

وما أروع ما اختتم به الأستاذ محمد أبو زهرة ذلك الموضوع حيث قال : « إن النظام الاقتصادى القائم نظام فاسد لاريب فى ذلك ، والفساد لا يبرر الفساد ، والفساد لا يوجد ضرورة .. أما إن زال الربا ، فكل رءوس الأموال تعمل ، ولا يوجد أى مبرر نفسى أو اجتماعى أو اقتصادى لقيام الربا .. ولعل مصر تعلم هذا أكثر من غيرها فإن الطريق لاستعمارها كان الربا ... فعلينا أن نعلم أن الاستعمار قد زال وبقيت آثاره اليهودية . فإذا كنا حاربنا الاستعمار وأخرجنا رجاله ، فحق علينا أن نحارب مرة أخرى آثاره ، بإخراج اقتصادنا من رق الاستعمار المالى ، كما حررنا حكومتنا من رق الاستعمار السياسى .